رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

معالم التغيير الثقافي الذي أحدثه النبي ﷺ

وكيفية الاستفادة منه في بناء ثقافة إسلامية عالمية

إعداد

الدكتور صالح عسكر

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة - الجزائر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م

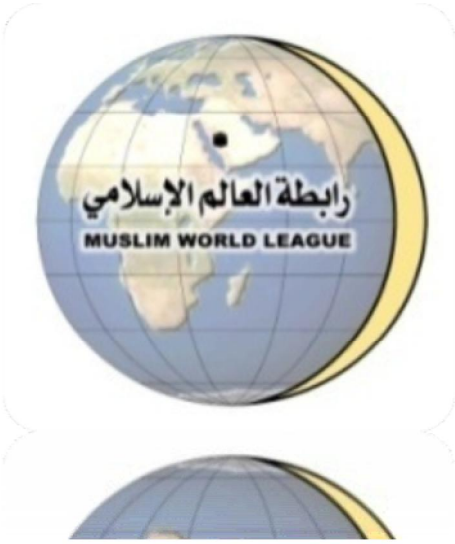

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ وَ ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لقد انطبع حالُ الناس قبل بعثة النبي ﷺ بأمرين: انحرافٍ عن الفطرة وفسادٍ في التصور، وقد لخّص ذلك ما رواه مسلم عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**»(١).

فهذا الحديث يوضح أن عامة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ ؛كانت قد انطمسَت فطرتُهم وانحرفوا عن التوحيد الذي خلَقهم الله عليه، كما أنهم انحرفوا عن المنهج الإلهي الذي أنزله الله وجاءت به الرسل، فحرَّموا على أنفسهم ما أحل الله لهم، وأن الله سبحانه بَعثه ليُصلح هذا الفسادَ، وأمدَّه بالكتاب الذي لا يستطيع أحد تحريفَه أو تبديلَه: «لا يَغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظان».

وأما العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ ، فلم يكن حالهم بأحسنَ من حال غيرهم، وقد لخَّص جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مظاهر انحرافهم في قوله

(١) صحيح مسلم، كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، ٤/ ٢١٩٧ ، ح٢٨٦٥.

للنجاشي:«أيها الملِك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنامَ، ونأكل الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونَقطَع الأرحامَ، ونُسيء الجوارَ، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا، نَعرف نسبَه وصِدقَه وأمانتَه وعفافَه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبُده، ونخلَع ما كنا نعبُد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزور، وأكْلِ مال اليتيم، وقذْفِ المحصَنات، وأمرَنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرَنا بالصلاة والزكاة والصيام- وعدَّد عليه أمورَ الإسلام- فصدَّقناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدْنا اللهَ وحده، فلم نُشركْ به شيئًا، وحرَّمْنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أَحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا، وفتَنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نَستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث...»[(١)].

فلما بعث اللهُ محمداً ﷺ بالوحيين مبشراً ونذيراً وداعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيراً؛ تبدَّل حال العربُ وحالُ الناس، فما الذي حدَث بعد مجيء النبي ﷺ.

لم تكد تمضي مِائةُ سنة على بعثته ﷺ حتى كان الإسلام يطرق جنوب فرنسا بعد أن عمَّ ربوعَ الأندلس غربًا، مروراً ببلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، ويطرق أبوابَ الهند شرقًا، مروراً بالعراق وفارس، وبعد أن بدأ محمد ﷺ يدعو إلى الله وحيداً، أصبح عدد الداعين إلى الإسلام والحاملين لنوره والمجاهدين في سبيله فضلاً عن أتباعه والمؤمنين به: ألوفًا من الناس مؤلفة، و«حين ظهر محمد ﷺ، كانت أرض العرب صحراء لا شيء فيها، وانطلاقًا من لا شيء؛ تمَّت هندسةُ

(١) سيرة ابن هشام، تحقيق السقا ١/ ٣٣٦.

عالمٍ جديد من طرف نفس محمد ﷺ العظيمة، حياة جديدة، ثقافة جديدة، حضارة جديدة، ومملكة جديدة امتدت من المغرب إلى جزر الهند، وأثَّرت في فكر وحياة القارات الثلاث: آسيا، إفريقيا، وأوروبا(*)»[1].

ولو أن العرب تحولوا جميعًا -كبيرهم وصغيرهم وذَكرهم وأُنثاهم- إلى جنودٍ؛ ما استطاعوا أن يجاوزوا بهذا الدين حدودَ بلادهم، وقد كان السرّ في ذلك أن الإسلام كان يفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد، لذلك كان عامة مَن وصل إليهم يتحولون إلى دعاة له ومجاهدين في سبيل نشره في الناس، فما الذي جعل الناس- على اختلاف بُلدانهم ومعتقداتهم وألسنتهم وألوانهم- يُقبِلون على هذا الدين في سلاسة ويُسْر، ويدخلون تحت رايته أفواجًا ؟

(*) When he appeared Arabia was a desert -- a nothing. Out of nothing a new world was fashioned by the mighty spirit of Mohammad -- a new life, a new culture, a new civilization, a new kingdom which extended from Morocco to Indies and influenced the thought and life of three continents -- Asia, Africa and Europe.

(1) "Mohammed The Prophet", Prof. K. S. Ramakrishna Rao, p3.

الإسلام وتصحيح ثقافة الناس:

من أعظم أسباب تلقُّف الناس لهذا الدين وطيرانهم به في الآفاق؛ أنه يصحح الفاسدَ في ثقافتهم[١] من غير أن يفرض عليهم تهديماً كاملاً لحياتهم ليبدؤوا حياة أخرى: «فأصبح الناس لا يجدون عائقاً عن الإسلام، ولا يواجهون صعوبة وعَنَتاً في سبيل قبول الإسلام، ولا يرون للجاهلية مُرَجِّحاً ومصلحة، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً، ويجد بردَ اليقين وحلاوةَ الإيمان وعزةَ الإسلام، ودولةً قوية يعتز بها، وأنصاراً يَفْدونه بأرواحهم وأنفسهم، ونفساً مطمئنةً وثقةً في الحياة بعد الموت، فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم، وصارت أرض الجاهلية تُنتقص من أطرافها، وكلمة الإسلام تعلو وظلُّه يمتد، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله»[٢].

وطِبقاً لما نص عليه حديث مسلم السابق، فإن النبي ﷺ قد بُعث برسالة

---

(١) اعتمدنا في تعريف الثقافة نَصَّ المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة التابعة لهيئة الأمم المتحدة «اليونسكو» في مؤتمرها العالمي بالمكسيك سنة ١٩٨٢م، والذي ذكر أن الثقافةَ هي: «جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميزُ مجتمعاً بعينه، أو فئةً اجتماعية بعينها، وتشمل الفنونَ والآدابَ وطرائقَ الحياة، كما تشمل الحقوقَ الأساسَ للإنسان ونُظُمَ القيم والتقاليد والمعتقدات، والثقافة هي التي تمنح الإنسانَ قُدرتَه على التفكير في ذاته، وتجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة بالعقلانية، والقدرة على النقد، والالتزام الأخلاقي، وعن طريقها يهتدي إلى القيم ويمارس الاختيار، وهي وسيلةُ الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته كمشروعٍ غيرِ مكتمل، وإعادة النظر في إنجازاته، والبحث عن مدلولات جديدة، وإبداع أعمالٍ يتفوق فيها على نفسه».

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الحسيني الندوي ، ص: ١١٤.

تُرُدّ الناس إلى فطرتهم التي خلقهم الله عليها: «وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم»، وإلى المنهج الذي يتوافق مع هذه الفطرة «وإنهم أَتَتهم الشياطين فاجتالَتهم عن دينهم وحرَّمَت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانا»، وفيما يلي نُجْمِل منهجَ الإسلام في إصلاح حياة الناس جماعةً وأفراداً.

منهج الإسلام في إصلاح حياة الناس وتعديل ثقافتهم:

١- **أما العقائد؛** فقد كان منهج الإسلام فيها الإخبار: وذلك أن جميع الأنبياء دعوا الناس إلى الإقرار بالله الواحد الأحد، والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... والعقيدة التي جاء بها نوح ومَن بعده من الرسل عليهم السلام؛ هي العقيدة التي جاء بها محمد ﷺ، وذلك الذي يجعل الأنبياءَ جميعاً مسلمين، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٨]، وفي الحديث: «**الْأَنْبِيَاءُ أَبْنَاءُ عَلَّاتٍ(*)**»[(١)]، أي أن أباهم واحد وهم مِن أمّهات شتى، إشارة إلى وحدة العقيدة وتعدُّد الشرائع.

(*) «العَلات بفتح المهملة: الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأةً ثم تزوج أخرى كأنه علَّ منها، والعَلل: الشرب بعد الشرب، وأولاد العَلات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى» ، فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٨٩.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام ح ٢٣٦٥، ٤/ ١٨٣٧

٢-**وتلحق الأخلاق بالعقائد**، لأن الفضائل والرذائل ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ولا يمكن أن يُتصور أن يكون الصدق رذيلة دهراً ثم يتحول بعد ذلك إلى فضيلة، ولما امتدح اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ امتدحه بكمال أخلاقه، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وفي بلاغات الموطأ أن النبي ﷺ قال: «**بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ**»[(١)].

٣-**وأما العبادات** فمنهج الإسلام فيها الإنشاء، والأصل فيها الحرمة حتى يأتي النص عليها من القرآن الكريم أو قولِ النبي ﷺ أو فِعله[(٢)]، كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»»[(٣)].

٤- **وأما أحكام العلاقات الأسرية والمعاملات المالية والعادات** من الطعام والشراب واللباس ونحوها، فإن الإسلام لم ينشئها، ولكنه شذَّبها وهذَّبها، فأبقى على الصحيح والصالح منها، وصحح ما أصله الصحة وداخِله الفساد، وأبطل الفاسدَ وحرَّمه.

---

(١) موطأ مالك،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب حُسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، ح٨، ٢/ ٩٠٤.

(٢) على هذا المبدأ تنبني قاعدة البدع، والتي تُعد الحرمةُ أصلاً فيها حتى يأتي ما يُشرعها، بخلاف العادات والمعاملات القائمة على قاعدة البراءة الأصلية.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحج، بَابُ اسْتِحْبَابِ رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ رَاكِبًا، ح١٢٩٧ ، ٢/ ٩٤٣.

مثال هذه الأنواع الثلاثة في أحكام العلاقات الأسرية: ما روى البخاري في صحيحه عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ: يَخْطِبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَالنِّكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا؛ جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ «فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ»(١).

ومنه سبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان الرجل يطلِّق ما شاء، ثم إن راجعَ امرأتَه قبل أن تنقضي عدتُها كانت امرأتَه، فغضِب رجلٌ من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي ٧/ ١٥ ، ح٥١٢٧.

الأنصار على امرأته، فقال لها: لا أقربُكِ ولا تَحلّين مني، قالت له: كيف؟ قال: أطلِّقكِ، حتى إذا دنا أجلُكِ راجعْتُكِ، ثم أُطلقكِ، فإذا دنا أجلُكِ راجعتُكِ، قال: فشكَت ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾»[1].

ومثال هذه الأنواع الثلاثة في أحكام المعاملات المالية: أن النبي ﷺ لما بُعث كان أهل الجاهلية يتعاملون بالبيع والربا والسَّلَم، فأُثبتت الإباحةُ في البيع وحُرِّم الربا، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأما السَّلَم فإن الإسلام لم يُبِحْه على صورته ولم يحرّمه، ولكن فرَض له شروطًا تَرفع الغررَ فيه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ ﷺ المَدِينَةَ، وَالنَّاسُ يُسْلِفُونَ فِي الثَّمَرِ العَامَ وَالعَامَيْنِ، أَوْ قَالَ: عَامَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً، شَكَّ إِسْمَاعِيلُ(*)، فَقَالَ: «مَنْ أسلَف فِي تَمْرٍ، فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ»، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، بِهَذَا: «فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ».

ومثاله أيضًا: الأمر بكتابة الدَّيْن والإشهادِ عليه، بل عامة أحكام المعاملات.

ومثال ذلك في العادات: أن الإسلام أبقى الناسَ على ما اعتادوه في مطاعمهم ومشاربهم، وحرَّم عليهم أموراً فصَّلها، كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ٥٣٩.

(*) إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُلَيَّةَ ثاني الرواة في سند هذا الحديث.

غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وأما في اللباس؛ فإن الله سبحانه وتعالى افترض على المؤمنات ضرْب الخُمُر على الجيوب وإدناء الجلابيب:﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وأما النبي ﷺ فقد نهى عن تشبّه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء، ففي البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»[(١)].

والمقصود أن الإسلام جاء بمنهجٍ غيَّر به ثقافةَ الناس من غير أن يَهدمها من أساسها، ولكنه اجتثّ منها الخبيثَ، وصحَّح فيها الفاسدَ، ومتَّن أسسَ الخير والصلاح فيها.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب: المتشبهون بالنساء، والمتشبهات بالرجال، ٧/ ١٥٩، ح٥٨٨٥.

أثر هذا المنهج الرباني:

يَشيع على ألسنة الناس أن الإسلام هدَم الجاهلية هدماً كاملاً وأقام مكانها بُنياناً جديداً؛ فإذا الإنسان غير الإنسان، والأمة غير الأمة، والناس غير الناس... وهذا التصور فيه من العاطفة أكثر مما فيه من النظر المتأني الهادئ، فالقرآن الكريم عدَّد على المؤمنين بعضَ أنعُمِ الله عليهم والتي منها التأليف بين قلوبهم بعد أن كانوا من قبلُ أعداءً كما في قوله سبحانه: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ثم ذكَّرهم بالجانب الخبيث المظلِم من حياة الجاهلية مما يناسب مقامَ الإنعام والامتنان، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين وصَف للنجاشي رضي الله عنه ما كانوا عليه وما صاروا إليه؛ إنما اقتصر على وصْف جوانب الفساد في الثقافة الجاهلية، لأن المقامَ كان مقامَ إظهارِ مساوئ الجاهلية في جنب ما دَعا إليه الإسلام.

ومع ذلك فقد كان في الجاهلية كثير من الأخلاق الطيبة والصفات الحميدة: كالكرم ونُصرة المظلوم والسقاية والرِّفادة والشجاعة ونحوها، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «لقد شهِدتُ في دار عبد الله بنِ جُدعان حِلفاً ما أُحِبُّ أن لي به حُمُرَ النَّعَم، ولو أُدعَى به في الإسلام لأجبتُ»[١].

---

(١) رواه ابن هشام من طريق ابن إسحاق عن محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي عن طلحة بن عبد الله رضي الله عنه، انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٤، وقال الألباني في تحقيق فقه السيرة للغزالي ص: ٧٦: «وهذا سند صحيح لو لا أنه مرسَل، ولكنْ له شواهدُ تُقوّيه».

وعليه، فإن الإسلام هدَم الفاسدَ في ثقافة الناس فقط، وأقام مقامه قواعدَ الحق والعدل والخير، وقد «كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها في القرن الأول لهجرة محمد ﷺ؛ فصلاً جديداً في تاريخ الأديان والأخلاق، وظاهرةً جديدة في عالم السياسة والاجتماع، انقلب به تيار المدنية، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتي بها الأنبياء ويبشر بها المبشرون ويجاهد في سبيلها المخلصون، ولكن لم يكن يتمكن دعاتُها من إقامة حكومة قائمةٍ على أساسها ومناهجها، متشبعةٍ بمبادئها، ومن إقامة مدنيةٍ مطبوعة بطابعها، مبنية على أحكامها مثلما تمكنوا في هذه المرة، ولم تنل هذه الدعوةُ والجهودُ من النجاح في هذا السبيل؛ مِثلَ ما نالت أخيراً على يد محمد ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، فكان هذا الفتح المبين للإسلام محنة جديدة للجاهلية لم تَعهدها من قبل، ولم تَعرف كيف تخرج منها، عهدُها بها دعوة دينية روحية، فإذا هي تُصبح نجاةً وسعادةً ورُوحاً ومادةً وحياةً وقوةً ومدنيةً واجتماعاً وحكومةً وسياسةً، دين سائغ معقول، كله حِكمةٌ وبداهةٌ إزاءَ أوهامٍ وخرافاتٍ وأساطير، وشرْعٌ إلهيٌّ ووحْيٌ سماويٌّ إزاءَ أقْيِسةٍ وتجاربَ إنسانيةٍ وتشريعٍ بشري، ومدنيةٌ فاضلةٌ قويةُ البُنيانِ مُحكمةُ الأساس، تُسود فيها روحُ التقوى والعفاف والأمانة، وتُقدّر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه، والروحُ فوق المظاهر الجوفاء، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوسُ مطمئنةً والقلوب خاشعة، ويقِل التنافس في أسباب هذه الحياة والتكالبُ على حُطام الدنيا، ويقِلُّ التباغض والتشاحن، كل ذلك إزاء مدنيةٍ صاخبةٍ مضطربةٍ متناحرةٍ متداعيةٍ البُنيان متزلزلةِ الأركان، يَظلم الكبيرُ فيها الصغيرَ، ويأكل القويُّ فيها الضعيفَ، ويتسابقون في اللهو والفجور، يتنافسون في الجاه والأموال وأسباب

الترف والنعيم، حتى تصبح الدنيا كلُّها حرباً في حرب، وتصبح المدنيةُ جحيماً على أهلها، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]»[(١)].

ولقد أنجز محمد ﷺ انقلاباً عالمياً في حياة الناس؛ مَسَّ العالمَ كلَّه، واستحق به أن يَشكره البشر كلُّهم عليه، ولقد كان هذا نتاجاً لنفسه العظيمة ﷺ التي حملت هذا المنهجَ الربانيَّ للناس، فإن كانت العظمة - مثلاً - في تنقية أمةٍ غارقةٍ في الوحشية، منغمسةٍ في ظلام أخلاقي مطلق؛ فقد كانت شخصيةُ النبي ﷺ التي حوَّلَت ورفَعت وشكَّلت ذَوقاً لأمةٍ كاملة كانت قد نزلت إلى هذا المستوى من الانحدار مثل الذي كان عليه العرب، وجعلَت منهم مشاعلَ مضيئةً للحضارة والعلم، صاحبة الحق في أن تدَّعي كل العظَمة، وإن كانت العظَمة تكمُن في توحيد العناصر المتنافرة في المجتمع من خلال روابط الأُخوة والمحبة؛ فقد حصل «نبي الصحراء ﷺ» على كل عنوانٍ لهذا التميز، وإن كانت العظَمة تتمثل في إصلاح أولئك المنغمسين في تلك الخرافات المُهينة العمياء والممارسات الخبيثة من كل نوع؛ فقد محا نبيُّ الإسلام ﷺ تلك الخرافاتِ والخوفَ غيرَ العقلاني من قلوب الملايين[(٢)(٣)].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص: ١١٣.

(2) "Mohammed The Prophet", Prof. K. S. Ramakrishna Rao, p٩.

(3) If for instance, greatness consist in the purification of a nation, steeped in barbarism and immersed in absolute moral darkness, that dynamic personality who has transformed, refined and uplifted an entire nation, sunk low as the Arabs were, and made them the torch-bearer of civilization and learning, has every claim to greatness. If greatness lies in

=

وهكذا زرَع الإسلام ثقافة صحيحة يقوم على حراستها الحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، والغني والفقير، ويَشعر المخالفُ لها بأنه حقير صاغر، وشاذ منبوذ، ورأى الناسُ «حكومة عادلة تساوي بين رعيتها وتأخذ للضعيف من القوي، وتحرُس للناس أخلاقَهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم، خيارُهم أمراؤهم، وأزهدُهم في العيش أملكُهم لأسبابه وأقدرهم عليه، إزاء حكومةٍ عمَّ فيها الجَور والعَسَف، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم، وتسابق أهلها في أكل أموال الناس وهتْك أعراضهم وسفْك دمائهم، وتُفسد على الناس أخلاقَهم بما تضرب لهم مثلاً بأخلاقها، شرارهم أُمراؤهم وملوكُهم، تَشبع دوابُّهم وكلابُهم وتجوع رعيتُهم، وتُكسى بيوتُهم ويَعرى الناسُ»[1].

وقد كان قيام هذا البنيان الجديد – الذي لم يكن مفروضاً – بالسلطة والسيف، ولكنَّه شكَّل ثقافة موافقة للفطرة التي خَلق الله الناسَ عليها، دافعاً للناس ليُقبلوا على هذه المنظومة الإسلامية طواعية: «فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم، وصارت أرض الجاهلية تُنتقص من أطرافها، وكلمة الإسلام تعلو وظله يمتد، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله.

=

unifying the discordant elements of society by ties of brotherhood and charity, the prophet of the desert has got every title to this distinction. If greatness consists in reforming those warped in degrading and blind superstition and pernicious practices of every kind, the prophet of Islam has wiped out superstitions and irrational fear from the hearts of millions…

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص: ١١٤

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيماً جليلاً، فكان الطريق إلى الله مِن قبل في دولة الجاهلية وغربة الإسلام؛ شاقًا عسيراً محفوفاً بالأخطار، فأصبح الآن سهلاً يسيراً آمنًا مسلوكًا، وكان يصعب على الإنسان في الوسط الجاهلي أن يطيع الله، فصعُب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصي الله، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرةً منصورةً؛ فأصبحت اليوم خافتةً مخذولة، وكانت أسباب سخَط الله وعصيانِه مكشوفةً موفورة، فعادت نادرةً مستورة، وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمةً قد تُرتكب سِراً وخُفية، فأصبحت جهراً وعلانية وحرّة آمنة لا تَلقى معارضةً ذاتَ بال...»[1].

هذه «الثقافة» التي سادت المجتمعَ المسلمَ صارت تؤثر في الناس جميعًا، حتى غير المؤمنين بها، بل إن العقيدة الإسلامية الصافية التي جاء بها القرآن والسنة خاليةً من التبديل والتحريف، قد فرَضت على النصارى وغيرِهم تحدياتٍ أنتجَت عند طوائفَ منهم مراجعاتٍ لمعتقداتهم وما يؤمنون به، وأما على المستوى الفردي فإن سيادة الثقافة الإسلامية وغلَبَتها؛ جعلَت أكثرَ الناس يتأثرون بها، فكيف يمكن الاستفادة من معالم هذا المنهج في إعادة بناء ثقافة إسلامية صحيحة ذات بعد عالمي؟

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص: ١١٤

كيفية الاستفادة من معالم المنهج النبوي

في إعادة بناء ثقافة إسلامية صحيحة ذات بُعد عالمي؟

الثقافة الإسلامية التي أقامها الإسلام مكان ثقافة الجاهلية؛ قامت على ركائز ثلاثة:

أولاً: العقيدة الواحدة: وقد تعرضت لتحديات وهجمات أدت إلى تصدعات في المجتمع المسلم، تمثلت في خروج فرق وطوائف بمعتقدات وأفكار مخالفة للصورة الصافية للعقيدة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم والجمهورُ الغالب من المسلمين؛ خاصة بعد توسُّع رقعة الإسلام وغلبته على دول النصارى والمجوس وأهل الأوثان، مما جعل طائفة منهم تسعى لحربه من داخله، وقد كان لترجمة الفلسفة الهندية واليونانية الأثر الأكبر في ذلك، فإذا الأمة الواحدة تصبح فِرقًا متعددة كما أخبر بذلك الحديث المشهور.

ثانيًا: الأُخوة الإيمانية والهدف الواحد وقد تعرضت للتنازعات السياسية: كالفتنة التي أدت إلى قتل عثمان، وامتدت من بعده إلى كثير من أفاضل الأصحاب، وانتهت بقتل علي رضي الله عنه، ثم ما زالت عرى الإسلام تُنتقض عُروةً عُروة، أولها الحكم كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

ثالثًا: النظام التشريعي الواحد إذ تعَّرض لاحتيال الفُسَّاق وفِتن العصبية المذهبية ونحوها.

وكل ما سبق أدخل كثيراً من التشوهات على الثقافة الإسلامية الواحدة التي نشأت مع نشوء الأمة التي أسس لبنيانها رسول الله ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم، وتشكلت هذه الثقافة الإسلامية من انصهار عاداتٍ وطبائع مختلفة، وتلاقحٍ بينها ضمن الإطار العام للمنهج الرباني، وضمن عقيدة واحدة وشريعة اختُصت بخصائص تضبط حياة الناس على اختلاف زمانهم ومكانهم وطبائعهم وعاداتهم.

أما اليوم فالمسلمون يواجهون منطق عولمة، يبتدئ بالوجبات السريعة والألبسة، ولا ينتهي باقتصادٍ تؤثر فيه زلازلُ جنوبِ شرق آسيا، أو صقيع وسط أوروبا، على سعر الرغيف في أريتيريا والصومال، وقد وقع إلغاءٌ فِعْلِيٌّ لفكرة الحدود، وتفاجأ الناس بأجيال لا تعرف فواصلَ لُغويةً أو جغرافية أو غيرها، وأصبحت الثقافة العالمية منطقاً مفروضاً، وتياراً جارفاً، لا يقدر أحد على الوقوف في طريقه، وأصبح لزاماً على الأذكياء أن يفكروا بدلاً عن معارضته في تسخيره، وهذا التسخير لن يتم إلا بالسلامة أوّلاً من الآثار الفاسدة لهذا التيار، ثم محاولة بثِّ شحنة بنّاءة خيّرة فيه، ويمر ذلك عبر فهم العولمة والثقافة العالمية وتأملها تأملاً هادئاً.

العولمة وتلاشي الحدود و الفواصل اللغوية والجغرافية:

العولمة[١]: «التوسع والانسجام في العلاقات والنشاطات البشرية والأنظمة السياسية، والاحتياج المشترك بين الأمم على المستوى العالمي، وتمس هذه الظاهرة الأشخاصَ في أغلب المجالات وفق تأثيرٍ وتزامنٍ خاص بكل واحد منهم، كما تثير الحديث عن التبادلات والتحويلات الدولية للأموال واليد العاملة والمعارف»[٢].

---

(1) "La mondialisation désigne l'expansion et l'harmonisation des liens l'interdépendance entre les nations, les activités humaines et les systèmes politiques à l'échelle du monde. Ce phénomène touche les personnes dans la plupart des domaines avec des effets et une temporalité propres à chacun. Il évoque aussi les transferts et les échanges internationaux de biens, de main-d'œuvre et de connaissances».

(2) "La mondialisation: faut-il s'en réjouir ou la redouter?"، Préparé par les services du FMI، 2 avril 2000

وانظر أيضاً: -د. محمد الشبيني، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، ص٢٣ وما بعدها.

- رضا محمد الداعوق، العولمة: تداعياتها وآثارها وسبل مواجهتها، ص١٥-١٨.

ويستتر وراء هذا المصطلح مفهوم «التغريبية» أو «تغريبية العالم»[١]، التي تشير إلى أن سيطرة الثقافة الغربية «قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذه الظاهرة «العولمة»، وتشير «العولمة الاقتصادية» إلى توسع الاحتياجات العالمية المتبادَلة تحت السيطرة الغربية، ويشير مفهوم «العولمة الإعلامية» إلى انتصار الكمبيوتر، الإنترنت، والأساليب الإعلامية المتطورة، وتشير العولمة إلى مجموع القوى التي تقود العالم نحو قرية عالمية، وهي بهذا المفهوم الثالث؛ تعني اختصار العالم في قرية»[٢].

ومن خلال قراءتنا للنص السابق، نلخص مضمونه في عنصرين:

- العنصر الأول: هو أن العولمة أنتجت التوجه نحو ثقافة عالمية مشتركة، لكنها غير مبنية على العدل والتنوع ولكن على فرض ثقافة القوي: أي الدول الأنجلو- أمريكية بالدرجة الأولى، ثم الغربية عموماً [٣].

---

(1) "The Westernization of the world has been part and parcel of the phenomenon which we have come to refer to as "globalization". The economic meaning of "globalization" refers to the expansion of world economic interdependence under Western control. The informational meaning of "globalization" refers to the triumph of the computer, the Internet and Information Superhighway. The comprehensive meaning of "globalization" refers to all the forces which have been leading the world towards a global village. Globalization in this third sense has meant the villagization of the world".

(٢) «البروفيسور» علي المزروعي، مدير كلية الدراسات الثقافية العالمية بجامعة «Binghamton» بنيويورك، في حوار مع قناة الـ «B B C» ، انظر: موقع B B C World service, World Lectures.

(٣) انظر للمزيد: Pierre-Noël Giraud, L'inégalité du monde Gallimard, 1996

- العنصر الثاني: أن الناس قد وقفوا من العولمة موقفين: موقفَ متحمّسٍ لها داعٍ إليها مبشّرٍ بما تحمِله من خير أو شر، وموقفَ مُعادٍ محاربٍ لها من غير أن يقترح بديلاً حقيقياً عنها.

وما يهمنا هو تأثير هذه الثقافة العالمية على المسلمين والبدائل المقترحة للتحرز من خبيثها.

البعد الثقافي ودوره في التدافع الحضاري:

مبدأ الصراع والمغالبة قانون يحكم علاقات الشعوب، لا بالمفهوم الذي طرحه المحافظون الجدد من أمثال «صامويل هنتغنتون»[1]، ولكن وفقاً لمفهوم مختلف سماه القرآن الكريم: «التدافع» وهو المانع من أن يعمّ الفسادُ الأرضَ: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ووفقاً لذلك فإن الساعين إلى الخير في هذه الحياة - وإن كانوا ضعفاء- لهم تأثير في كَبح جموح الباطل، والحيلولة دون أن يَسود ويستطير، فأما إن كانوا أقوياء فإنهم يقيمون العدل، وينشرون الخير، ويَقمعون الظلم، ويحاربون المنكر: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

أما أهل البغي والعُلو والفساد؛ فإنهم إن لم يجدوا من يقاومهم عاثوا في الأرض فساداً، فإن وجدوا مَن يدفعهم ويردُّهم؛ فإنهم سيستنفدون كلَّ جهد في بلوغ أبعدِ مدىً ممكن، وبِناءً على ما سبق فإن على المسلمين واجباً شرعياً يفرض عليهم المدافعة ضمن هذه الثقافة العالمية.

---

(١) انظر: فرانك جي ليتشنز، و جون بولي، العولمة: الطوفان أم الإنقاذ؟ ترجمة: فاضل جتكر، ص٥٩-٧٣.

موقع المسلمين من إيجابيات العولمة وسلبياتها:

يشترك المسلمون مع سائر الأمم - الكتابية والوثنية - في الدعوة إلى قيم العدل والخير، ولذلك فهُم يتشاركون مع جميع الناس في اعتراضهم على ما تفرضه العولمة من صور الظلم وخرق الخصوصيات، ولكن المسلمين يفترقون عن غيرهم في حيازتهم لرسالة السماء ودعوتهم إليها، والتي تتعارض مع بعض الأمور التي تعتبر من الأمور المقبولة عند كثير من الأمم الأخرى.

ولهذا فإن المسلمين حين يَقبلون بثقافة عالمية مشتركة[1]؛ يشترطون مرجعيةً يحتكم الناس إليها في تحديد القيم ومفاهيمها، وكمثال على ذلك: تَعرض الثقافة الغربية نموذجًا من الانحلال الخُلقي غير المقيد أو المضبوط، تحت عنوان: الحرية الفردية والمساواة ونحوها، غيرَ قابلٍ لمجرد المراجعة أو المناقشة في كثير من آثاره الكارثية، كانتشار الأمراضً الجنسية، والآفات الاجتماعية، والتفكك الأسري، وشيخوخة المجتمعات بسبب التحلل من المسؤوليات الأسرية، والتخلي عن تحمُّل تبعات الإنجاب والتربية، ونشوء أجيال من المرضى النفسيين والأطفال في الملاجئ، ونسبة غير قليلة من المجرمين الحاقدين على المجتمع المتحينين أدنى فرصة للانتقام منه، وعليه فإن المسلمين حين يتحدثون عن سلبيات ثقافة العولمة، لا يتحدثون عن مجرد بُعدٍ مادي حيواني، يتعلق باقتسام الثروات وتَناسُب مستويات المعيشة، بل يتحدثون عن موت الإنسانية في نفوس الناس، وتَحوُّلهم إلى آلات استهلاكية أنانية ينتهي العالم عند حدود تحقيقها لرغباتها الشخصية.

غير أن مجرد الحديث عن سلبياتٍ لن يقدم أو يؤخر شيئًا، لأن من طبيعة القوي أن يفرض منطقه على الناس غيرَ عابئ بكونه صحيحًا أو باطلاً، ففي

---

(١) انظر: د محمد الشبيني، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة ص٣١٦-٣٢٤.

حواره مع قناة الـ «B B C» قال «البروفيسور» علي المزروعي مدير كلية الدراسات الثقافية العالمية بجامعة «Binghamton» بنيويورك: «إن من علامات القوي حيازتَه بعض الحَظوة بسبب القوة، ولأن الغرب قد أصبح قوياً خلال القرون الخمسة أو الستة الأخيرة، أصبحت الثقافة والحضارة الغربية مؤثرة، تجذب تقليداً ومحاكاة واسعة الانتشار، لقد سرَّعت السيطرة الغربية تجانسَ القيم والأنماط والمؤسسات، مُعظم العالم أصبح مُغربـًا»(١).

ويضيف: «لقد أدى التفوق الغربي في القرون الثلاثة الأخيرة؛ إلى إعلان أن الحضارة الغربية لها صلاحية عالمية، هذا الإعلان تتحداه أمور ثلاثة: تحدي النسبية التاريخية (فالذي كان مقبولاً في الغرب قبل مائة سنة ليس مقبولاً اليوم بالضرورة)، وتحدي النسبية الثقافية (فالذي هو مقبول في الغرب قد لا يكون مقبولاً في ثقافات وحضارات أخرى)، والتحدي التجريبي (فالغرب لم يُفلح في الوفاء بمعاييره الأخلاقية الخاصة فقط، ولكنَّ هذه المعايير في بعض الأحيان قد تم تحقيقُها بصورة أفضل من قِبَل ثقافات أخرى أكثر مما حققها الغرب)»(٢).

---

(1) "In this lecture we started from the premise that "the sins of the powerful acquire some of the prestige of power". The West has become powerful over the last five to six centuries. Western culture and civilization became influential, and attracted widespread imitation and emulation. Western hegemony precipitated widespread homogenization of values, styles and institutions. Much of the world became Westernized".

(2) The West's triumph in the last two or three centuries has led to the claim that Western civilization has universal validity. Such a claim faces three challenges -- the challenge of historical relativism what was valid in the West a hundred years ago is not necessarily valid today, the challenge of cultural relativism what is valid in the West may not be valid in other cultures and civilizations and the challenge of empirical relativism not only does the West fail to meet its own ethical standards, but those standards are sometimes better fulfilled by other cultures than by the West.

لقد أشار المزروعي إلى أن منطق القوي يجعله يَفرض ثقافتَه، ولكن القوة والانتشار لا تعني الصلاحية بالضرورة، ونقول: ذلك يفرض على المسلمين أن يتعاملوا مع ثقافة العولمة تعاملاً خاصاً يمكِّنهم من الاستفادة من محاسنها والتحرز من سيئاتها، فما هي أفضل السبل لتحقيق ذلك ؟

أفضل السبل للتعامل مع ثقافة العولمة :

من وجهة نظر «بيونكي روبرت»؛ فإن هناك نمواً لعولمة إسلامية ضمن نظام عالمي متعدد الأقطاب والثقافات، وتتمثل هذه العولمة الإسلامية النامية؛ في التحولات في روابط متعددة المجالات، وخاصة: الحج والأسفار الدينية، الصرافة والمعاملات المالية الإسلامية، والدبلوماسية والنفوذ السياسي، ويمزج الكاتب بين النشاطات الدينية والسياسية والاقتصادية والتشريعية والعلاقات الدولية، ملقياً الضوءَ على التطور في «الشرق الأوسط»، جنوب آسيا، جنوب شرق آسيا، وإفريقيا، كما يدعو إلى سرعة تنمية العلاقات بين الصين والعالم الإسلامي، مبيناً تأثيرَ ذلك على موازين القوى(١).

إن فكرة النظام العالمي متعدد الأقطاب هذه، والتي ترتكز على وجود ثقافة عالمية مركَّبة من مجموعةٍ من الهويات الثقافية؛ تبدو لأول وهلةٍ الحلَّ الوسط الذي يُرضِي الجميع، ولكنها في باطنها مبنية على مغالطة كبيرة أَلِفها الناس ورفضها القرآن الكريم: ألا وهي فكرة تَساوي الأشياء بحيث يتساوى ما عليه الناسُ جميعا، وكلٌّ مصيب، أما الإسلام فأعلن أن الخبيث والطيب لا يستويان، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ

(1) BIANCHI ROBERT R, ISLAMIC GLOBALIZATION: PILGRIMAGE, CAPITALISM, DEMOCRACY, AND DIPLOMACY, World Scientific 5 Sep 2013

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وليس في الشرع ما يمنع المؤمنين من التعاون مع غيرهم على الخير ودفْع الظلم والشر، ولكنَّه لا يبيح لهم إقرارَ المنكَر ولا الرضا به، لذا فإن مبدأ القبول بما هو خبيث فاسد باسم الثقافة العالمية متعددة الأقطاب- إن تَصوَّرْنا أنه ممكن الوقوع فعلاً - هو تسويةٌ بين الخبيث والطيب، وهما لا يستويان عند أُولي الألباب ولو كثُر الخبيث.

وزيادة على ذلك فإن طبيعة المسلمين وما يحملون من رسالة تفرض عليهم استغلال هذا الواقع في الدعوة إلى المبادئ التي جاء بها محمد ﷺ الذي أرسله اللهُ رحمةً للعالمين.

العولمة الثقافية وواجب الدعوة إلى الإسلام:

يعتقد المسلمون اعتقاداً صادقًا أن الإسلام هو الخير للناس جميعًا، وهم يدعون الناس إليه لا من باب فرض الوصاية عليهم، ولا جعْلِهم تابعين لهم، ولكنْ لمحبتهم الخيرَ لجميع الناس، من هذا المنطلق فإن واقع القرية العالمية يجعل المسلمين اليومَ أقدرَ على عَرضِ مبادئِ الإسلام على فئاتٍ واسعة من الناس، وإن تنبيه المسلمين على ذلك له وظيفتان:

إحداهما: أن شعور الرسالية يُخرج المسلم من ثوب الضحية التي لا تستطيع إلا الانجرافَ وراء تيار العولمة الجامح، إلى دور الفاعل المؤثر.

الثانية: أن ذلك سيؤدي يومًا إلى استجابة الناس للحق الذي كانوا عنه غافلين، ولعل ذلك ما أشار إليه الحديث الذي رواه أحمد عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَيبلُغَنَّ هذا الأمر [الإسلام] ما بلغ الليل والنهار، ولا يبقى بيتُ وبَرٍ ولا مَدرٍ إلا أدخله اللهُ هذا الدين، بعِزِّ عزيزٍ، أو بِذُلِّ ذليل، عِزاً يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلاً يُذِلُّ به الكفرَ**».

ولئن كانت تلك الغايةَ المقصودةَ؛ فدونها تحقيقُ بعض الأهداف المرحلية، ففي عَرْضه لمسألة «هل الإسلام ضحية أم منتصر في العولمة ؟»[١] « Islam: Victim or Victor?» قال البروفيسور المزروعي: إن الإسلام قد يكسَب في المستقبل على مستوى التجانس إذا استطاع أن يُدخل قِيمه إلى ثقافة القطب الأوحد، فيشترك الناس مع المسلمين في قيمهم من غير أن يشتركوا معهم بالضرورة في الدين، ضارباً لذلك مثالاً ببعض القيم التي يشترك فيها المسلمون الأمريكيون مع الأمريكيين الجمهوريين في مساندة حرية الصلاة في المدارس، ومعارضة الإجهاض لغير سبب، ومعارضة السماح بالعلاقات المثلية، ومساندة القيم العائلية والزواج المستقر[٢].

مضيفاً أن هناك نوعاً من الأسلَمة الديموغرافية لأوروبا وأمريكا؛ جعلَت عددَ المسلمين أكثر من عشر ملايين مسلم في أوروبا من دون احتساب خمسين مليون مسلمٍ تركي، وعشرة مثلها في أمريكا الشمالية، وجعلَت الإسلامَ الديانةَ الثانيةَ إحصائياً، رجاءَ أن يؤدي ذلك في مرحلةٍ ما إلى اعتبار الإسلام جزءاً من الهوية الأوروبية الأمريكية.

---

(1) B B C World service, World Lectures

(2) "At the moment the Muslim world is a net loser from both homogenization and hegemonization. However, will Islam one day gain from homogenization? Only if Muslim values penetrate the global pool. Can people share Muslim values without sharing the Muslim religion?

For example many U.S. Muslims find themselves sharing social values with Republicans in the United States: in favour of prayer at school against easy abortion against too much homosexual permissiveness in favour of family values and stable marriages".

وذلك يوجب على المسلمين اليوم أمرين:

أحدهما: حُسن تلاوة الكتاب كما تلاه ﷺ على الناس: أي تبليغهم إياه وبيان معانيه وتوضيح حُججه وبراهينه والجهاد به جهاداً كبيراً، لا مجرد إقامة حَرفه وتحسين الصوت به.

الثاني: حُسن عرض هذه الفطرة بإقامة الوجه لهذا الدين والعيش به وله جماعةً وأفراداً، فيرى الناسُ دين الله بأعينهم بدلاً عن أن يَطرق آذانا تَسمع ما لا تَرى، أو يَطرقها ما ترى الأعينُ ضده ونقيضه، ولا بد من تسجيل الحقائق التالية:

١- أن الإسلام وقِيمه أفضل ما يصيبُ الناسَ في هذه الحياة، وأن الثقافة العالمية الواحدة كلما استطاعت أن تخطو خطوة في هذا الاتجاه؛ كانت أكثر إسعاداً للناس وتحقيقاً لمآربهم.

٢- أن الإسلام هو الدين الذي سيَغلب على الأرض ويسود مشارقها ومغاربها ويبلُغ ما بلغ الليل والنهار، ولقد أرسل الله محمداً ﷺ بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

٣- أن المسلمين هم الذين شَرُفوا بالإسلام وليس الإسلامُ مَن شرُف بهم، وأن السنن الإلهية قد حكمَت على كل جيلٍ منهم ارتد أو بدَّل؛ بأن يُستبدَل ويأتي اللهُ بغيرهم: قوم يحبهم ويحبونه، ينصرونه فينصرُهم.

فالأهداف والمقاصد تُحقَّق بالأعمال لا بالأماني، وعلى المسلمين اليوم مسؤوليةٌ عظمى في إنارة حياة الناس بالخير الذي حباهم الله به، فترَكه كثير منهم وأخذوا ذات اليمين وذات الشمال.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.